القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

أيام الشدة

عبد الحميد جودة السحار

١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه . ما أنْزَلْنا عَلَيكَ القُرآنَ لِتشْقَى . إلاَّ تَذْكِرَةً
لِمَنْ يَخشَى . تنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرضَ والسَّموات
العُلى . الرَّحمنُ على العَرْشِ استَوى . له ما في
السَّمواتِ وما في الأَرضِ وما بينهما وما تحتَ
الثَّرَى ﴾ .

(قرآن كريم)

١

خرجَ عُمَرُ بن الخَطّابِ يومًا وهو يحمِلُ سَيفَه ، وسارَ وفي وجهِه عزْم ، فقابلَه رجُل ، وقال له :

ـ أين تُريدُ يا عُمَر ؟

قال عمرُ فى غضب :

ـ أُريدُ محمَّدًا هذا الصَّابئ ؛ الذى فَرَّقَ أمرَ قُريش ، وعابَ دينَها ، وسَبَّ آلِهَتَها ، فَأَقْتُلُه .

قال له الرجل :

ـ واللّه قد غرَّتْكَ نفسك يا عُمَر ، أترَى بنى عبدِ منافٍ تاركيكَ تمشى على الأَرض وقد قتلتَ محمَّدا ، أفلا ترجِعُ إلى أهلِ بيتِك ، فتُقِيمَ أمرَهم ؟

فقال عُمَرُ فى دَهَش :

ـ أيُّ أهل بيتى ؟

ـ أختُكَ فاطمة ، وابنُ عمّكَ سعيدٌ زوجُها ، فقد والله أسلَما ، وتابَعا محمَّدًا على دينِه .

فرجَعَ عُمَرُ غاضِبًا إلى اختِه فاطِمةَ وزوجِها ، وكان عندَهما رجلٌ مسلم ، معه صحِيفةٌ فيها سورةُ طهَ يُقْرِئُهما إيّاها ، فلمَّا سمِعُوا حِسَّ عمر ، اختبأَ الرَّجُل ، وأخَذَتْ فاطمةُ الصَّحيفةَ ، فَجعلتْها تحت فخِذِها ، وسمِعَ عمرُ حين اقترب قراءَةَ القرآن ، فدخلَ على أخته ، وقال :

ـ ما هذه الهَينَمةُ التي سمِعت ؟

قالت له أُختُه وزوجُها سعيد :

ـ سمِعتَ شيئا ؟

قال :

ـ والله لقد أُخبِرْتُ أنّكما تابعتُما محمَّدًا على دينه .

وضربَ سعيدًا زَوجَ أُختِه ، فقامت أختُه تمنعُ عن زوجِها ، فضربَها فسال دمُها ، فقالت له :

- نعمْ ؛ قدْ أسلَمنا وآمنّا باللّـه ورسولِه ، فاصنَع ما بَدا لك .

نَدِمَ عمرُ على ما صَنَعَ بأخته ، وقال لها :

- أعطِيني هذه الصحيفةَ التي كنتم تقرءُون ، أَنظُرُ ما هذا الذي جاءَ به محمد ؟

قالت له أختُه :

- إنّا نخشاكَ عليها .

- لا تخافِي .

وحلَفَ لها بآلهتِه ليُردَّنّها إليها إذا قرأَها ، فطَمِعَتْ أختُه في إسلامِه ، فقالت له :

- يا أخي إنَّك نَجسٌ على شِركِكَ ، وإنّه لا يَمَسُّه إلاَّ المُطَهَّرُون .

فقام عُمَر فاغتسلَ ، فأعطَتْه الصَّحيفةَ وفيها سورةُ طه ، فقرأها ، وقال :

- ما أحْسنَ هذا الكلامَ وأكرَمَه !

فلـمَّا سمِعَ الرجلُ الـذى اختَبـأ ذلـك ، خـرجَ مسرورا ، وقال لعمر :

ـ واللّه يا عمـر ، إنـى لأرجُو أن يكـونَ اللّـه قـد خَصَّـكَ بدعـوةِ نبيِّـه ﷺ ، فإنِّى سمِعتُـه أمـس وهـو يقول : اللهم أيِّدِ الإسـلامَ بـأبى الحَكَـم بـنِ هشـام ، أو بِعمرَ بن الخطاب ، فاللّهَ اللّهَ يا عُمَر .

فقال له عمر :

ـ فدلّنى على محمّد ، حتى آتِيَه فأُسلِم .

وذهبَ عُمَر يُعلِنُ إسلامَه .

٢

غاظَ قُريشًا دخولُ النّاسِ فى الدين الجديد ، فاتّفقَ ساداتُ قُريشٍ على قتلِ محمدٍ ﷺ ، فلمّا رأى أبو طالبٍ ذلك ، جمعَ بنى عبدِ المطّلِب ، وأمَرَهم أن يُدخِلوا رسولَ اللّه فى حِصنِهم ، وأن يمنَعُوه ممن أرادُوا قتلَه ، فدخلَ المُسلمون مع محمد ، ودخلَتْ خديجةُ معه . فلمّا عرَفتْ قريشٌ أن بنى عبدِ المطّلب قَرَّروا حماية محمَّد ، والدِّفاعَ عنه ، اجتمعَ المشركونَ من قُريش ، واتّفقُوا ألاّ يُجالِسُوا مَن نَصرَ محمَّدا ، ولا يُبايعوهم ، ولا يتزوّجُونَ منهم ، وكتبوا بذلك عهدًا علّقوه فى جوفِ الكعبة .

وضيّق المشركونَ الحِصارَ على المسلمين ، فنَفِدَ ما كانَ عندَهم ، وخوَت بطونُهم ، وبكى صغارُهم

يطلبونَ الطعام . ومرَّت على المسلِمين ثلاثُ سنواتٍ عِجاف . وفى ذاتِ يوم دخَلَ النبيُّ على عمِّه أبى طالب ، وقال له : إن اللّهَ قد سلَّطَ الأَرَضَةَ على الصَّحيفةِ التى كتبَتْها قُريش ، وعَلَّقتْها فى الكعبة ، فأكلتها ، ولم تدَعْ فيها إلا اسمَ اللّه ، فقال له أبو طالب :

ـ أربُّكَ أخْبَرَك بهذا ؟

فقال رسولُ اللّه :

ـ نعم .

فقال أبو طالب :

ـ فَلِمَ نُحْبَس ؟

وخرجَ أبو طالبٍ إلى أشرافِ قُريش ، وقال لهم : إن اللّهَ سلَّط الأرضة على الصَّحيفةِ الظالمةِ فَلَحِسَتْها ؛ فذهبَ ساداتُ قُريشٍ إلى جوفِ الكعبة ، فوجدُوا الأرَضَةَ قد أكلَتِ الصَّحيفةَ ومزَّقتها ، فرُفِعَ الحِصارُ عن المسلمين .

٣

لم تحتملْ خَديجةُ الاضطهادَ الذى لاقتَه مـع زوجهـا والمسـلمينَ ثـلاثَ سـنين ؛ حـاصَرَتهم قُريـشٌ حتـى جوَّعَتهـم ، وعذبتهـم ، ولم تكـن خديجـةُ تـألَفُ مثـلَ ذلـك العـذاب ، فلمـا عـادت إلى دارِهـا مرضـتْ ، فلَزِمَها محمَّدٌ ﷺ ، ولم يُفارِقها لحظة ، إنها آمَنـت بـه لـمَّا كذَّبه الناس ، وشجَّعته لـمَّا لم يجِد من يُشجِّعه ، وواسته لـمَّا اضطهَدَه الكفار ؛ كانت له نِعمَ الزوجَة ونِعمَ المُعِين .

ومضى على مرضِها ثلاثةُ أيام ، وإذا بها تموتُ بين يديه ، فحزِنَ عليها حُزنًا شـديدا ؛ كـان يُحِبُّهـا حبًّـا صادِقا ، فآلَمه فَقدُها ، وأحسَّ عِظم الفجيعة فيها .

٤

كان هذا العامُ عامَ الأحزان ؛ ماتت خديجة ، واشتكى أبو طالب فيه ، ولمَّا رأى أشرافُ قُريشٍ شِدَّةَ مرضِ أبى طالب ، قالوا :

ـ إنَّ حمزةَ وعُمَرَ قد أسلما ، وقد فشا أمرُ محمَّد فى قبائِلِ قُريشٍ كلِّها ، فانطلِقوا بنا إلى أبى طالب .

فذهبوا إليه ، وقالوا له :

ـ يا أبا طالِب ، إنَّك مِنَّا حيثُ قد علِمتَ ، وقد حَضَرَكَ ما ترى ، وتَخَوَّفنا عليك ، وقد علِمتَ الذى بيننا وبينَ ابن أخيك ، فادعُه ، فخُذْ لنا منه ، وخُذْ له منَّا ، ليكُفَّ عنا ، ولنكُفَّ عنه ، ولِيَدَعنا ودينَنا ، ولِنَدَعه ودينه .

فأرسَلَ إليه أبو طالبٍ ، فجاء ، فقال له :

- يا بنَ أخِي ، هؤلاء أشرافُ قومِك ، قد اجتمعُوا إليك ليُعطوكَ وليأْخُذوا منك .

فقال رسولُ الله ﷺ :

- يا عمِّ ، كلمةً واحِدةً تُعطُونَها ، تملِكُونَ بها العرب ، وتدينُ لكم بها العجم .

فقال أبو جهل :

- نَعمْ وأبيكَ ، وعشرَ كلمات .

قال :

- تقولون : لا إله إلاّ الله ، وتخلَعُونَ ما تعبُدون من دُونِه .

فقال بعضُهم لبعض :

- إنّه واللّه ما هذا الرَّجُلُ بمعطِيكُم شيئا ممّا تُريدون ، فانطلِقوا وامضُوا على دينِ آبائِكم ، حتى يحكُمَ اللّه بينكم وبينه .

ثم تركوه وتفرّقوا ، فقال له أبو طالب :

- واللّه يا بنَ أخي ، ما رأَيتُكَ سألْتَهم شَطَطا .

فطَمِع رسولَ اللّه فى أن يُسلِمَ عمُّه ، فقال له :

ـ أىْ عمّ ، فَأنتَ فقُلْها .

فقال أبو طالبٍ فى صلَف :

ـ يابنَ أخِى ، واللّه لولا مخافَةُ أن تظُنَّ قُرَيشٌ أنّى إنَّما قُلْتُها جزَعًا من المَوت ، لَقُلْتُها .

وماتَ أبو طالب ، فحَزِنَ عليه محمَّدٌ ﷺ ، فقَدْ فَقَدَ الذى كان يمنعُ عنه أذَى قريش ، بعدَ أن فَقَدَ الزَّوجةَ الرَّءُوم ، التى كان يجدُ عندَها الرَّاحة والأمن .

٥

ماتَ أبو طالب ، فاشتدَّتْ أذِيَّةُ قُريش لرسولِ اللّه ، ففكّر فى أن يخرُجَ من مكّةَ إلى الطّائِف ، يلتمِسُ من أهلِها أن ينصُرُوه ، ويمنعُوا عنه أذِيَّةَ قومِه ، ورجا أن يدخُلُوا فى الإسلام ، فلمَّا بَلَغَها ذهَبَ إلى ثلاثةِ إخوة ، كانوا سادَةَ ثقيف ، وهى القَبيلةُ التى تنزِلُ الطّائِف ، وجَلَسَ إليهم ، وأخذَ يدعُوهُم إلى الإسلام ، فقال له أحَدُهم مستهزِئا :

ـ أما وَجَدَ اللّه أحدًا يُرسِلُه غيرَك ؟!

وأخَذُوا يسخَرُونَ منه ، فقامَ من عندِهم ، وقدْ يئس منهم ، فلم يترُكوه يعودُ من حيثُ جاء ، بل أمَرُوا عبيدَهم أن يَسُبُّوه ، وأن يَرْمُوه بالحِجارة ، فقعَدُوا له صَفين على طريقه ، فلمَّا مرَّ أخَذُوا يرمونَ رِجْلَيه بالحجارة ، لا يرفَعُ رِجْلَيهِ ولا يضعُهما

إلاَّ رَمَوهُما بالحِجارَة ؛ فسالَ الدَّمُ من رِجلَيه ، وصبرَ على الألَمِ الشَّديد ، حتى إذا ابتعَدَ عنهم وصَلَ إلى نخلةٍ ، جلسَ في ظِلِّها يستريح ، ورفعَ عينيه إلى السَّماء وراح يدعو :

— « اللَّهمَّ إليكَ أشكُو ضعفَ قُوَّتي ، وقِلَّةَ حيلَتي ، وهوانِي على النَّاس ، يا أرحمَ الرَّاحِمين ، أنتَ ربُّ المُستَضعَفِين ، وأنتَ ربِّي ، إلى مَن تَكِلُني ؟ إلى بَعيدٍ يتجهَّمُني أم إلى عَدُوٍّ ملَّكتَه أمري ؟ إن لم يكن بك غَضبٌ عليَّ فلا أُبالِي ، ولكنَّ عافِيَتَك هي أوسَعُ لي ، أعوذ بنورِ وجهكَ الذي أشرَقَتْ له الظُّلمات ، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخِرة ، من أن تُنْزِلَ بي غَضَبَكَ أو يَحِلَّ عليَّ سَخَطُك ، لك العُتْبَى حتى تَرضَى ، لا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بك » .

ورأى رجُلانِ ما حَلَّ به ، فَرَقَّا له ، فَدَعَوا غُلاما نَصرانِيًّا يقال له عَدَّاس ، وقالا له :

ـ خذْ قِطْفا من هذا العِنب ، فضَعْه فى هذا الطَّبق ، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرَّجُل ، فقل له يأكُلْ منه .

أخَذَ عَدَّاسٌ قِطْفًا من العنب ، وذهَبَ إليه ، ووضَعَ أمامَه الطَّبَق ، فمدَّ رسولُ اللّه يده ، وهو يقول :

ـ باسمِ اللّه .

فنظرَ إليه عَدَّاسٌ ، وقال :

ـ واللّه إنَّ هذا الكَلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد .

فقال رسول اللّه :

ـ ومن أهلِ أىِّ بلادٍ أنتَ يا عَدَّاس ؟ وما دينُك ؟

ـ نصرَانِىّ ، وأنا رجُلٌ من أهلِ نِينَوَى .

فقال رسول اللّه ﷺ :

ـ من قريةِ الرجُلِ الصالح يونُسَ بن مَتَّى .

فقال عَدَّاسٌ فى دَهَش :

ـ ما يُدْرِيكَ ما يونُسُ بنُ مَتَّى ؟

– ذلكَ أخى ، كان نَبِيًّا وأنا نبىّ .

فأكَبَّ عَدَّاسٌ على رسُولِ اللّه يُقَبِّلُ رأسَه ويديه وقَدَمَيه .

وانصَرَفَ رسولُ اللّه إلى مكّةَ وهو صابِر ، يحتَملُ الأذى دونَ ضَجَر . كان يعلمُ أنَّ بعدَ الشِّدَّةِ الفَرَج ، وأنَّ مع العُسْرِ يُسرْا .